تأديب العصاة

كانت غزوة بنى النضير خطوة حازمة موفقة، وضربة فى الصميم أصابت اليهود والمنافقين معًا، فكسرت شوكتهم وملأت قلوبهم بالرعب، فكف المنافقون عن اللغو والإرجاف وإشاعة الفتنة، وقَبَع بنو قريظة فى عُقْر دارهم يترقبون فى حذر وخوف، وهدأت المدينة فترة من الزمن استطاع الرسول ﷺ والمسلمون فيها أن يوجهوا جهودهم إلى تأديب ما بقى من القبائل الثائرة عليهم من أعراب البادية.

غزوة ذات الرقاع

ففى جمادى الأولى من هذه السنة علم رسول الله أن بنى محارب وبنى ثعلبة يتهيأون لحربه، فخرج إليهم فى سبعمائة من أصحابه، وولى على المدينة عثمان بن عفان، وسار صلى الله عليه وسلم حتى نزل «نخلا»، وهى موضع بنجد من أرض غطفان، فلقى بها جمعًا عظيمًا منهم، فتقارب الناس ولم يكن بينهم حرب. وقد خاف الناس بعضهم بعضًا حتى صلى رسول الله صلى الله

عليه وسلم بالناس صلاة الخوف، فكان إذا حضرت الصلاة صلى بفريق من أصحابه، وبقى فريق قائماً يحميهم من غدرة العدو، حتى إذا انتهى الفريق الأول من صلاته قام تُجاه العدو وصلى النبى ﷺ بالفريق الآخر. وسميت هذه الغزوة «ذات الرقاع»، لأن الحجارة أوهنت أقدامهم، فكانوا يشدون عليها رقاع الخِرَق.

صورة من الإخلاص

وفى هذه الغزوة نزل رسول الله ﷺ منزلاً فى شعب من شعاب الوادى، فقال: «مَنْ رجلٌ يكلؤنا ليلتَنا هذه»؟ فانتدَب لذلك رجل من المهاجرين ورجل من الأنصار فقالا: «نحن يا رسول الله». قال: «فكونا بفم الشِّعب». فلما خرج الرجلان إلى فم الشعب قال الأنصارى للمهاجرى: «أى الليل تحب أن أكْفيكه، أوله أم آخره»؟ قال: «بل اكفنى أوله» فاضطجع المهاجرى فنام، وقام الأنصارى يصلى. فأتى رجل من المشركين يتبع القوم، فلما رأى شخص الأنصارى عرف أنه رَبِيئة القوم[1] فرمى بسهم فوضعه فيه، فنزعه الأنصارى ووضعه وثبت قائماً، ثم رماه بسهم آخر فوضعه فيه، فنزعه الأنصارى وثبت

(١) ربيئة القوم: الحارس الذى يراقب العدو.

قائماً؛ ثم عاد له بالثالث فوضعه فيه، فنزعه الأنصارى فوضعه ثم ركع وسجد. ثم أيقظ صاحبه فقال له: «اجلس فقد أُثبِت[1]».. فوثب المهاجرى قائماً. فلما رآهما الرجل عرف أنهما قد نَذِرا به فهرب. ولما رأى المهاجرى ما بالأنصارى من الدماء قال: «سبحان الله! أفلا أهبَبْتَنى[2] أول ما رماك؟» قال: «كنت فى سورة أقرؤها، فلم أحب أن أقطعها حتى أنفِدها[3]؛ فلما تابع علىّ الرمى ركعت فآذنتك[4].. وايم الله لولا أن أضيع ثغْرًا أمرنى رسول الله بحفظه لقطع نَفَسى قبل أن أقطع السورة»!

وصورة من الثقة

وفى هذه الغزوة ذهب رسول الله ﷺ يَقِيل فى ظل شجرة، وعلق سيفه فى فرع من فروعها، فتسلل إلى مكانه رجل من العدو، فأخذ سيف رسول الله فاستَلَّه من جرابه؛ فاستيقظ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فإذا الرجل قائم على رأسه والسيف فى يده وهو يقول له: «من يمنعك منى؟» قال: «الله».. فسقط السيف من يده، فأخذه رسول الله، صلى الله

---

(١) أثبت: يعنى أن ما أصابه من السهام قد أعجزه عن القيام.

(٢) أهببتنى: أيقظتنى.

(٣) أنفدها: أفرغ منها.

(٤) آذنتك: أعلمتك.

عليه وسلم، وقال له: «من يمنعك مني؟» قال: «كن خير آخذ» فعفا عنه صلى الله عليه وسلم، فأسلم، وجاء إلى قومه فدعاهم إلى الإسلام وقال لهم: «جئتكم من عند خير الناس».

غزوة بدر الآخرة

ولما قدم رسول الله ﷺ المدينة من غزوة ذات الرقاع أقام بها بقية جمادى الأولى وجمادى الآخرة ورجبًا، ثم خرج فى شعبان إلى بدر، ليعاد أبى سفيان الذى ضربه للقتال عند انصرافه يوم أحد. وكانت بدر سوقًا يجتمع فيها الناس فى شعبان من كل عام، فيقيمون بها ثمانية أيام يبيعون ويشترون ويتبادلون السلع والمنافع. وكانت قريش قد أصابها الجدب فى ذلك العام، وقلت مواردها بسبب ما ضيق المسلمون عليها فى تجارتها، فلم تكن بها قوة للحرب؛ فعزم أبو سفيان على ألا يخرج إلى بدر فى ذلك العام، وحاذر أن يلقى رسول الله ﷺ وأصحابه خشية أن تدور عليه الدائرة؛ ولكنه خشى كذلك أن يدرك المسلمون ما عليه قريش من سوء الحال، فلجأ إلى الحيلة ليخذل المسلمين ويثنيهم عن الخروج؛ فاستأجر رجلاً يقال له نُعَيم بن مسعود، وأوعز إليه أن يأتى المدينة فيشيع فى الناس أن قريشًا قد جمعت للمسلمين جموعًا لا قبل لهم بها. فقدم نعيم وجعل يُرْجِف فى

المدينة بكثرة جموع قريش؛ ولكن رسول الله ﷺ صمم على الخروج فى الميعاد مهما كان الأمر، وأقسم قائلاً: «والذى نفسى بيده لأخرجن وإن لم يخرج معى أحد!»

وخرج صلى الله عليه وسلم فى ألف وخمسمائة من أصحابه، واستخلف على المدينة عبد الله بن عبد الله بن أُبَيّ. فلما أتوا بدرًا لم يجدوا بها أحدًا من قريش، لأن أبا سفيان خشى مَغَبَّة اللقاء، فرجع بقومه من الطريق وهو يقول لهم: «يا معشر قريش، إنه لا يصلحكم إلا عام ترعَوْن فيه الشجر وتشربون فيه اللبن، وإن عامكم هذا عام جدب، وإنى راجع فارجعوا».. فرجع الناس، وباءت قريش بخزى النكول عن الحرب ومعرة الفرار من لقاء العدو، حتى سماهم أهل مكة «جيش السويق».. يقولون لهم فى تهكم وسخرية: إنما خرجتم تشربون السويق! وسارت لهم بذلك سمعة بين العرب ذهبت بما كانوا يفخرون به من النصر يوم أحد.

أما رسول الله ﷺ وأصحابه فقد ظلوا ببدر ثمانية أيام، يبيعون ويشترون، فربحوا ربحًا كثيرًا، ونفوا عن أنفسهم وصمة الهزيمة فى أحد، واستعادوا ما كان لهم فى نفوس الناس من هيبة ومكانة. وفى هذه الغزوة نزل قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ قال لهم الناسُ إنِ الناسَ قد جمعُوا لكم فاخشَوْهم فزادَهُم

إيمانًا وقالوا حَسْبُنا الله ونِعْم الوكيلُ * فانقلبُوا بنعْمة من الله وفضْل لَمْ يَمْسَسْهم سُوء واتبعُوا رضوانَ الله، والله ذو فَضْلٍ عظيم * إنما ذٰلكم الشيطانُ يُخَوف أوْلياءَهُ فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين﴾[1].

فترة هدوء وسلام

وهكذا عاد المسلمون إلى المدينة بعد بدر هذه وهم أكثر ما يكونون طمأنينة وأمنًا، فأقاموا بالمدينة ستة أشهر فى سلام ورخاء ودعة. وفى هذه الفترة تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أم سَلَمة بعد أن تُوفِّى عنها زوجها أبو سلمة، رضى الله عنه، وكان أبو سلمة ابن عمة رسول الله وأخاه من الرضاعة، وأول من هاجر من المسلمين إلى الحبشة. وما زال المسلمون ينعمون بالسلام فى هذه الفترة حتى انقضت السنة الرابعة ومضى فى السنة الخامسة شهران: المحرم وصفر.

غزوة دومة الجندل

وفى ربيع الأول من هذه السنة (يوليه سنة ٦٢٦) نُمى إلى رسول الله ﷺ أن جماعة من الأعراب «بُدومَة الجنْدَل» -

(١) سورة آل عمران الآيات ١٧٣ - ١٧٥.

على حدود الشام - يفسدون فى الأرض؛ فيقطعون الطريق ويسلبُون الأموال؛ وأنهم يريدون أن يَدْنوا من المدينة؛ فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ألف من أصحابه، واستعمل على المدينة سبّاع بن عَرْفَطة، وسار متخفيًا فى غير الطريق المألوف، يسير بالليل ويكمُن بالنهار، حتى قطع الطريق فى نحو خمس عشرة ليلة. فلما أحسوا بمقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم أصابهم الرعب؛ فتفرقوا فى كل وجه؛ ونزل صلى الله عليه وسلم بساحتهم فلم يلق بها أحدًا، فبعث السرايا وفرّقها فى كل ناحية، فرجعوا إليه سالمين؛ وأصابوا رجلًا من القوم فجاءوا به إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فعرض عليه الإسلام فأسلم. ثم رجع رسول الله بما أصاب من أنعامهم فدخل المدينة فى عشر من ربيع الآخر.

غزوة بنى المصطلق

وفى شعبان من هذه السنة (ديسمبر ٦٢٦) خرج رسول الله ﷺ إلى بنى المصطلق، وهم بطن من خزاعة، رئيسهم الحارث بن أبى ضرار. وكان قد بلغ رسول الله أنهم يُجمعون لحربه، فخرج إليهم فى جمع كثير من الناس، وخرج معه كثير من المنافقين ممن لم يكونوا يخرجون، طمعًا فى الغنيمة؛

وخرج معه من نسائه عائشة وسَوْدة. فسار صلى الله عليه وسلم حتى وصل إلى ماء يقال له «المَرِيْسيع»، وهناك التقى بالحارث ورجاله، وصف الفريقان للقتال. فلما تراءى الجمعان أمر رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب فنادى فى القوم: أن «قولوا: لا إله إلا الله، تمنعوا بها أنفسكم وأموالكم». فأبَوْا أن يقولوها، فتراشق الفريقان بالنبل ساعة. ثم أمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يحملوا فحملوا عليهم حملةَ رجل واحد، فقتلوا منهم عشرة وأسروا بقيتهم، فما أفلت منهم أحد قط. وغنم المسلمون من الإبل ألفى بعير، ومن الشاة خمسة آلاف، وسبَوا أهل مائتى بيت من الرجال والنساء والذرية.

وكان من جملة السبى جُوَيْرِيَة بنت الحارث نفْسِه؛ فأراد رسول الله ﷺ أن يتألّف قومها إلى الإسلام، فأعتقها وتزوجها، فكان زواجها بركة على بنى قومها جميعًا، إذ أطلق المسلمون من بأيديهم من الأسرى، إكرامًا لصِهْر رسول الله، صلى الله عليه وسلم. وكان ذلك سببًا فى إسلام أكثرهم.

المنافقون يحاولون إثارة الفتنة بين المسلمين

كانت غزوة بنى المصطلق غزوة موفقة فى كل خطواتها؛ وكان المسلمون أحْرياء أن يغتبطوا ويفرحوا بما كتب الله لهم فيها

من التوفيق والنصر، لولا أن المنافقين أبَوا إلا أن يكدروا صفو هذا السرور، ويُذْهبوا من بهاء هذا النصر؛ فقد استغلوا حادثين حدثا بعد هذه الغزوة، كانا جديرين أن يمرَّا كما تمر الحوادث العادية، دون أن يلفتا نظر أحد أو يثيرا دهشة أحد. ولكن المنافقين أبَوا إلاّ أن يستغلّوا هذه الفرصة، ليثيروا بأولهما فتنة كادت تعصف بوحدة المهاجرين والأنصار، وليدنِّسوا بالآخر طُهْرَ بيت هو أطهرُ البيوت وأقدسها، وأعظمها مكانة فى قلوب المسلمين.

أما الحادث الأول فقد كان خلافًا على الماء بين أجير لعمر ابن الخطاب وحليف لبنى الخزرج، اشتجر بسببه الرجلان فتضاربا، فصرخ الحليف: "يا معشر الأنصار"! وصرخ الأجير: "يا معشر المهاجرين"! فاجتمع عليهما المتسرعون من هؤلاء وهؤلاء حتى كادوا يقتتلون، وأوشكت أن تقوم الفتنة بين المهاجرين والأنصار. فلما سمع رسول الله ﷺ الصراخ خرج مسرعًا يقول: «ما بال دعوى الجاهلية»؟ فأخبروه الخبر، فصاح غاضبًا: «دعوا هذه الكلمة فإنها مُنْتِنة».. ! وأدرك الفريقين فهدَّأ من ثورتهما، وكلم المضروب حتى أسقط حقه، وبذلك سكنت الفتنة وتصافى الفريقان.

ولكن عبد الله بن أبىّ عز عليه أن تنطفئ هذه الشرارة قبل

أن تُحدث الحريق الذى كان بِوُدِّه أن يأتى على الأخضر واليابس، وأن تموت هذه الفتنة قبل أن تذهب بما فى صفوف المسلمين من وحدة وائتلاف. فقد ثار ابن أبىّ حين علم بما كان من أمر الحليف والأجير، وجعل يقول فى أصحابه: "والله ما رأيت كاليوم مذلة!.. قد نافرونا وكاثرونا فى بلدنا وأنكروا منّتنا! والله ما أعُدُّنا وجلابيبَ قريش هذه إلا كما قال القائل: سَمِّنْ كلبَك يأكلك! لئن رجعنا إلى المدينة لَيُخرِجنَّ الأعزُّ منها الأذَلَّ"!

ثم أقبل على من حضره من قومه يلومهم ويعنفهم فقال: "هذا ما فعلتم بأنفسكم؛ أحللتموهم بلادكم، وأنزلتموهم منازلكم، وآسيتموهم فى أموالكم حتى استغْنَوْا.. أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير بلادكم.. ثم لم ترضَوْا ما فعلتم حتى جعلتم أنفسكم أغراضًا للمنايا، فقُتلتم دونهم، فأيْتمتم أولادكم وقَلَلْتم وكَثُروا.. فلا تُنفقوا على من حوله حتى يَنفضُّوا"!

أذن واعية

وكان فى القوم زيد بن أرقم - وهو يومئذ غلام لم يبلغ الحلُم، أو قد بلغ - فحدث رسول الله ﷺ بذلك وعنده نفر

من المهاجرين والأنصار؛ فتغير وجه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ثم قال: «يا غلام، لعلك غضبت عليه».. قال: "لا والله، لقد سمعت منه". قال: «لعله أخطأ سمعُك».. قال: "لا يا نبي الله"! قال: «فلعله شُبِّه عليك».. قال: "لا والله، لقد سمعت منه يا رسول الله"..!

وشاع في المعسكر ما قال ابن أبيّ حتى ما كان للناس حديث غيره.. وقال عمر بن الخطاب: "يا رسول الله، مُرْ به عَبَّاد بن بِشْر فلَيقتلْه"..! فقال له رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «فكيف - يا عمر - إذا تحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه؟.. لا، ولكن أذِّنْ بالرحيل».. وذلك في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها.

وبلغ الخبرُ ابنَ أبيّ فحلف بالله ما قال من ذلك شيئًا، ثم مشى إلى رسول الله ﷺ وحلف بالله ما قال الذي قال، وأسرع رسول الله عند ذلك السير، وكانوا في حر شديد.

قال ابن إسحاق: «فلما استقل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وسار، لقيه أسيْد بن حُضَير، فحياه بتحية النبوّة وسلم عليه، ثم قال: "يا نبي الله، والله لقد رحتَ في ساعة منكرة ما كنت تروح في مثلها"! فقال له رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «أو ما بلغك ما قال صاحبكم»؟ قال: "وأي صاحب

يا رسول الله"؟ قال: «عبد الله بن أبيّ»! قال: "وما قال"؟ قال: «زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليُخرِجَن الأعزُّ منها الأذلَّ»! قال: فأنت يا رسول الله - والله - تخرجه منها إن شئت.. هو - والله - الذليل وأنت العزيز».. ! ثم قال: "يا رسول الله ارْفُق به، فوالله لقد جاءنا الله بك وإنّ قومه لَيَنْظِمُون له الخَرَزَ ليتوجُوه؛ فإنه ليَرى أنك قد استَلَبْتَه مُلْكاً".

ثم مشى رسول الله ﷺ بالناس يومَهم ذلك حتى أمسى، وليلَتَهم حتى أصبح، وصَدرَ يومهم ذاك حتى آذتهم الشمس؛ ثم نزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مسَّ الأرض فوقعوا نيامًا.. وإنما فعل ذلك رسول الله، ليشغل الناس عن الحديث الذى كان بالأمس، من حديث عبد الله بن أبى.

ونزلت السورة التى ذكر الله فيها المنافقين، فى ابن أبيّ ومن كان على مثل أمره. فلما نزلت أخذ رسول الله ﷺ بأُذُن زيد ابن أرقم ثم قال له: «هذا الذى أوْفى لله بأذنه».

وبلغ عبد الله بن عبد الله بن أبى الذى كان من أمر أبيه، فأتى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقال: "يا رسول الله، إنه قد بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن أبى فيما بلغك عنه؛ فإن كنت لا بد فاعلا فمُرْنى به فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرجُ ما كان لها من رجل أبرَّ بوالده منى؛ وإنى

أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله، فلا تـدَعنى نفسى أن أنـظر إلى قاتل أبى يمشى فى الناس، فأقتلَه فـأقتل رجـلا مـؤمنًا بـكافر، فأدخل النار"». فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «بـل نترفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا».

وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قـومه هـم الـذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنفونه. فقال صلى الله عليه وسلم لعمر بـن الخطاب حين بلغه ذلك فى شأنهم: «كيف ترى يا عمـر؟ أمـا والله لو قتلتُه يوم قلت لى: اقتله، لأرْعَدَت له آنُفٌ لو أمـرتها اليوم بقتله لقتلته».. قال عمر: "قد ـ والله ـ علمـتُ: لأمْـرُ رسول الله أعظمُ بركة من أمرى"»

حديث الإفك

أما الحادث الآخر فهو حادث الإفك والافتراء على عـائشة، رضى الله عنها، بما برأها الله منه؛ وذلك أن رسول الله ﷺ فى أثناء عودته من غزوته تلك نزل منزلا فى الليل، فذهبت عـائشة فى الخلاء لتقضى حاجتها، فسقط عقد لها فى الـطريق، فـرجعت إليه تلتمسه فأبطأت. وكان رسـول الله، صلى الله عليـه وسـلم، معُجَلا فى هذه الرحلة، فأمر بالرحيل دون أن يعلم أو يعلم أحد من الركب بغياب عائشة، فـوضعوا هَـوْدَجَها على بعـيرها وهـم

يظنون أنها فيه، ثم أسرعوا فى السير وخلفوها وراءهم.

فلما عادت عائشة إلى مكان الركب لم تجد فيه أحدًا، فجلست فى مكانها وهى على يقين بأنهم عائدون إليها لا محالة حين يفتقدونها، ثم غلبها النوم فنامت. وكان صفوان بن المعطّل وراء الركب يتابعه، ليلتقط ما عسى أن يكونوا قد خلفوه من متاع أو شىء؛ فلما رأى عائشة عرفها فجعل يسترجع قائلا: «إنا لله وإنا إليه راجعون».. فما زال يسترجع حتى استيقظت فلما استيقظت قدم لها بعيره فركبت، وانطلق يقوده بها حتى دخل بها المدينة فى نَحْر الظهيرة.

فلما رآها عبد الله بن أبى سأل: "من هذه"؟ فقيل له: "عائشة" قال: "امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت ثم جاء يقودها"! فجعل المنافقون يتكلمون فى شأن عائشة وصفوان، وأرْجفَت المدينة كلها بالإفك، حتى نزل الوحى من السماء ببراءتها، وكذّب الذين جاءوا بهذا الإفك وأخزاهم، وتوعدهم بالعذاب العظيم.

طبيعة الحادث

لقد كان هذا الحادث فى ذاته أمرًا عاديًّا غير جدير بأن يثير شبهة أو شكًّا؛ فإنه لم يزد فى وضعه الطبيعى على أن سيدة

فاتها الركب دون علم منها ولا منهم، فأدركها تابع الركب فأجارها حتى ردها إلى مأمنها، فكان صنيعه معها صنيع الرجل الذى يؤدى واجبه لأنه واجب، فإن لم يكن واجبًا فإنه مروءة ينبعث إلى فعلها الرجل الكريم من تلقاء نفسه؛ وفى كلتا الحالتين لم يكن ينبغى أن يكون هناك مجال للشك فى أمرها وأمره، لأنه أمر طبيعى تمليه ظروف البيئة وطبيعتها.

وقد هاجرت من قبل أم سلمة من مكة إلى المدينة وليس معها إلا وليدها الطفل؛ فلما رآها عثمان بن طلحة على هذه الحال، أبت عليه المروءة - وهو مشرك - أن يتركها وحدها فى هذه المتاهة، فاصطحبها فى رحلتها حتى أوصلها إلى المدينة ثم عاد، فما تحدث أحد من أهل المدينة فى شأنها ولا فى شأن عثمان، على رغم أن عثمان كان لا يزال مشركًا وعدوًّا للإسلام والمسلمين، وبرغم ما كان فى تلك الرحلة من سعة الوقت وتعدد الفرص لمن أراد أن ينتهز فرصة. ذلك أن الشهامة العربية تقضى على الرجل أن يحمى المرأة حين لا حامى لها ولو كانت من رعاع الناس، فكيف وعائشة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعقيلة بيت النبوة، وسليلة بيت أبى بكر، ذلك البيت الذى ما عُرفت له سقطة قط فى الجاهلية حتى تعرف عنه فى الإسلام؟ وكيف وصفوان رجل يؤمن بالله ورسوله، ويعتنق

مبادئ الإسلام الذى ينهى عن الفحشاء والمنكر؟ وكيف وهو فوق ذلك رجل عربى فيه شهامة العرب ومروءتهم وسمو نفوسهم ؟!.

كان حقد ابن أبىّ هو السبب فى هذه الفرية

لكنه الحقد والحسد والضغينة أكلت قلب عبد الله بن أبى، وملأته غيظًا على الإسلام ورسوله، ودفعت به إلى هذا الموقف الدنىء، كما دفعت به من قبل إلى مواقف أخرى تكشف كلها عن خبث نيته وسوء قصده؛ فقد عاد ابن أبى من هذه الرحلة مغيظًا محنقًا بسبب ما لقى فى مكيدته تلك من إخفاق، وما أصابه بسببها من مذلة وهوان، فدخل المدينة ونفسه تفور من الغيظ على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فجعل يتلمس فرصة ينفس بها عن نفسه؛ فما كاد يرى عائشة وصفوان عائدين على فترة من الركب، حتى وجدها أحسن فرصة يطلق فيها الوشاية، ويشعل الفتنة التى عجز عن إشعالها بين المهاجرين والأنصار بسبب الأجيرين، فراح يطلق لسانه بالإفك فى عائشة، "عسى أن يوقع بين النبى وأقرب الأصدقاء إليه أبى بكر الصديق، أو يفلح فى تشكيك المسلمين فى كرامة نبيهم، أو يقيم بين قومه الخزرج وسائر المسلمين شَغَبًا يقعون فيه، عَصَبِيَّةً له

وأنَفةً من هوانه، فينتقض أمر الإسلام من أوس وخزرج وأنصار ومهاجرين"[1].

لقد كانت ظروف الرحلة وملابساتها كلها تدعو إلى العجلة؛ "وكان مسير الجيش فى عودته من هذه الغزوة مضطربًا أشد اضطراب، لشيوع الفتنة بين المسلمين وأتباع عبدالله بن أبىّ"[1]؛ وكان النبى معجلا ليشغل الناس عن الحديث فى أمر هذه الفتنة، حتى جعل، ﷺ، يضرب راحلته بالسوط فى مراقيها ليستعجلها؛ فلم يكن من العجب أن يفوت الركب عائشةَ فى هذه الأوْبة العاجلة، دون أن يفطَن أحد إلى تخلفها وانقطاعها عن الركب. ولكنه الغرض الدنىء والخصومة الوضيعة هبطا بابن أبى إلى أحط دركات الخساسة، فأطلق هذه الفرية التافهة، وأشاع هذه الكذبة الدنيئة، فتلقفها أنساس على شاكلته من المنافقين وأشاعوها فى كل ناحية، حتى امتلأت بها الأسماع وتداولتها الألسن، وتحدث بها من لا يدرك ما وراءها من الأغرار والبلهاء.

فرية لا تجوز حتى على امرأة ساقطة

هذه فرية ما كان ينبغى أن تجوز حتى على امرأة ساقطة؛ إذ لا يمكن لامرأة ـ مهما يكن من حمقها وسفاهتها ـ أن تجاهر

---

(١) الصديقة بنت الصديق.

بأمرها هذه المجاهرة، وأن تأتى هكذا فى وضح النهار ومعها رفيقها، فتكشف ما خفى من مستور أمرها، وتعلن على أعين الناس أنها قد أتت ما أتت وفعلت ما فعلت؛ فإن فى غريزة المرأة - مهما سقطت - نزوعًا طبيعيًّا إلى التجمل للناس، والظهور أمامهم فى أكمل مظهر تستطيعه، حتى لا يزهد الناس فيها - على الأقل - إذ هى عالنت بحقيقتها.

فهل يكون من الجائز أن تجاهر بمثل هذا عائشة أم المؤمنين والمثل الأعلى للمؤمنات؟ أما كان لها مُزْدَجَر فى قول الله تعالى لها ولصواحبها من نساء النبى: ﴿يا نساء النبىِّ مَن يأتِ منكنَّ بفاحشةٍ مُبَيِّنة يضاعَفْ لها العذابُ ضِعْفيْن، وكان ذلك على الله يسيرًا* ومن يَقْنُتْ منكنَّ لله ورسولِه وتعملْ صالحاً نُؤتِها أجرَها مرتين وأعتدنا لها رزْقًا كريمًا * يا نساء النبى لَسْتُنَّ كأحدٍ من النساء، إن اتقَيْتُنَّ فلا تَخضعْنَ بالقَول فيطمعَ الذى فى قلبه مَرَضٌ وقُلْنَ قولاً معْروفًا * وقَرْنَ فى بيوتِكن ولا تَبرَّجْنَ تَبرُّجَ الجاهليَّة الأولى وأقمن الصلاةَ وآتين الزكاةَ وأطعْن الله ورسولَه إنما يريدُ الله لِيُذْهِبَ عنكم الرجْسَ أهلَ البيتِ ويُطَهرَكم تطهيرًا * واذكُرْن ما يُتْلى فى بيوتِكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لَطيفًا خبيرًا﴾[1]؟.. أفما كانت تخشى أن يَحِل بها غضب الله

(١) سورة الأحزاب الآيات : ٣٠ - ٣٤.

وعقابه، وأن تسقُط عن هذه المنزلة التي رفعها الله إليها وكرمها بها.. ؟ أفا كانت تستحى أن تدنِّس طُهْر هذا البيت الذى يتنزل فيه الوحى وتَغْشاه الملائكة، أو تحسَبُ حسابًا لسمعة بيتها وكرامة أبويها.. ؟

الحق أنها كانت فرية ساقطة، وكذبة لا يقرها عقل ولا دين ولا ذَوْق، ولا يقبلها منطق البيئة ولا ظروف المجتمع وإن أقاموا عليها ألف دليل ودليل. فكيف "وليس لها سند ولا شبهة إلا أن عائشة تأخرت فى الطريق هُنَيْهة حين تحرك العسكر على حين فجأة، فى رحلة كانت كلها كثيرة المفاجآت فى مواعيد النزول والرحيل؟ تلك شبهة لا تكفى للشك فى امرأة من عامة المسلمين الخارجين للجهاد فى حضرة نبى الإسلام؛ إذ لو كانت كل امرأة تتأخر فى الطريق تؤخذ بالتهمة فى دينها وعرضها، لكانت التهم فى الأعراض أهون شىء يخطر على بالٍ»[1].

القرآن يدحض الفرية ويجعلها محورًا للتشريع فى صيانة الأعراض

من أجل هذا لم يكتف القرآن بتكذيب الفرية ونفى التهمة عن عائشة، بل عالج الموقف من جميع نواحيه علاج الحكمة

---

(١) الصديقة بنت الصديق.

البالغة التى تصون للأعراض الطاهرة حرمتها، وتقطع على الألسنة الكاذبة طريقها، وتحفظ للمجتمع الإسلامى سمعته وكرامته..

الزنى جريمة دنسة لا يمكن أن يأتيها المؤمن

فقد بدأت آيات سورة النور بتحديد العقوبة الزاجرة لجريمة الزنى، وأمرت بإيقاعها على الزناة بلا شفقة ولا رحمة، وأن يكون ذلك بمشهد من الناس ليكون موعظة لهم؛ لأنها جريمة دنسة، بالغة الأثر فى إفساد المجتمع وإهدار الكرامة، لا يمكن أن يأتيها إلا أهلها من الناس، ممن خبثت نفوسهم أو تلوثت عقيدتهم؛ أما المؤمنون فهم بحكم إيمانهم وتقواهم أبعد الناس عن هذه الجريمة الدنسة:

﴿الزَّانيةُ والزَّانى فاجْلِدوا كلَّ واحد منهما مِائةَ جَلْدة، ولا تأخذْكم بهما رأفةٌ فى دينِ الله إنْ كنتم تُؤْمنون بالله واليَوْمِ الآخرِ وَلْيَشهدْ عذابَهما طائفةٌ منَ المؤمنينَ * الزَّانى لا يَنْكِحُ إلا زانيةً أو مُشركةً والزَّانيةُ لا يَنكِحُها إلا زانٍ أو مشركٌ وحُرِّم ذلك على المؤمنين﴾[1]..

---

(١) سورة النور آيتا ٢، ٣.

الذين يتكلمون فى أعراض الناس بغير علم يعاقبون وتهدر كرامتهم

ثم أعقبت ذلك بتحصين المجتمع الإسلامى من شر أولئك الفُسَّاق الذين يَلِغُون فى أعراض الناس بغير علم، ويُهدِرون كرامات البيوت بغير إثم، فألزمتهم بإقامة الدليل القاطع، والبرهان الذى لا يقبل الشك على صدق ما يتقوّلون به على الناس؛ فإن لم يستطيعوا أن يقدموا هذا الدليل فلهم العقاب الرادع والهوان اللاذع والكرامة المُهْدَرة، حتى يتوبوا عن الخوض فى أعراض الناس.. حتى الأزواج أنفسهم لابد لهم أن يقيموا هذا الدليل إذا رَمَوْا زوجاتهم بالفاحشة. فإن لم يستطيعوا كان عليهم أن يؤكدوا ذلك بالأيْمان المغلَّظة، يُشْهِدون الله فيها على أنهم صادقون غير كاذبين. وللزوجة بعد ذلك أن تدرأ عن نفسها، وأن تعارض هذه الأيمان بأيمان مثلها، وتُشهِد الله على أن زوجها فيما رماها به كاذب غير صادق:

﴿والذين يَرْمُون المحصنَات ثمَّ لم يَأتُوا بأربعة شُهَداء فاجلِدُوهم ثمانين جَلْدَةً ولا تَقْبَلوا لهم شهادةً أبدًا وأولئك هم الفاسِقُون * إلاّ الَّذين تابوا مِنْ بعد ذلك وأصلَحُوا فإن الله غفورٌ رحيمٌ * والذين يَرمون أزوَاجَهم ولم يكنْ لهم شهداءُ

إلا أنفسُهم فشهادةُ أحدهم أربعُ شَهادات بالله إنَّه لمنَ الصادقين * والخامسةُ أنَّ لعنةَ الله عليه إنْ كان من الكاذبين * ويَدْرَأ عنها العذابَ أن تَشْهَد أربعَ شهاداتٍ بالله إنه لَمِنَ الكاذبين * والخامسةَ أنَّ غضَبَ الله عليها إنْ كان من الصادقين﴾[1].

وبعد ذلك عرضت الآيات حديث الإفك؛ فوصفته بأنه فريةٌ عصبة كاذبة أرادت به الشر للمسلمين وأراد الله به الخير لهم، وأن الله لا بد آخذٌ هؤلاء الكذَبَةَ بذنوبهم: ﴿لكلٌّ امرئ منهم ما اكتَسَب منَ الإثم والذى تَوَلى كِبْرَهُ منهم له عذابٌ عظيم﴾..

على المؤمنين أن يحسنوا الظن بإخوانهم وألا يندفعوا وراء الأراجيف

وهنا ألقت الآيات على المؤمنين درسًا بالغًا فيما كان ينبغى أن يتأدبوا به فى مثل هذه الحادثة الخطيرة؛ فقد كان على المؤمنين أن يحسنوا الظن بإخوانهم المؤمنين والمؤمنات، وألا يصدقوا هؤلاء الكاذبين حتى يقيموا الدليل القاطع على ما أرجفوا به من هذا الإفك، وألا يجاروا السفهاء فيما يشيعون

(١) سورة النور الآيات ٤ - ٩.

من ذلك البهتان العظيم، وأن يعصموا ألسنتهم من الخوض فيه.. ثم حذرهم أن يعودوا لمثله أبدًا، وأن يعملوا على إشاعة الفاحشة فى مجتمعهم، فإن ذلك من عمل الشيطان، وذكرهم بما تفضل الله به عليهم من نعمة الإيمان التى تعصمهم من الزلل، وبما كان منه سبحانه من العفو عن أخطائهم؛ وطلب إلى أولى الفضل منهم أن يغفروا لمن أساء فى هذا السبيل، وألا يقطعوا عنهم بسبب هذه الإساءة ما تعودوا أن ينالوهم به من الفضل والإحسان.

﴿إنَّ الذين جاءوا بالإفْك عُصْبَةٌ منكم لا تحسبُوه شرًّا لكم بل هو خيرٌ لكم لكل امرئ منهم ما اكتَسَب من الإثم والذى تَوَلى كِبْرَه منهم له عذابٌ عظيم * لوْلا إذْ سَمِعْتُموه ظَنَّ المؤمنونَ والمؤمناتُ بأنفسهم خيرًا وقالوا هذا إفكٌ مُبين * لولا جاءُوا عليه بأربعة شُهدَاء، فإذْ لم يأتُوا بالشهداءِ فأولئكَ عندَ الله هم الكاذبون * ولولا فضلُ الله عليْكُم ورحمتُه فى الدنيا والآخرةِ لَمَسَّكم فيما أفَضْتُم فيه عذابٌ عَظيمٌ * إذ تَلَقَّوْنَه بألْسِنَتكم وتقُولون بأفْوَاهكم ما ليس لكم به عِلمٌ، وتحسَبونه هيِّنًا وهو عندَ الله عظيمٌ * ولولا إذ سَمِعْتُموه قُلْتُم: ما يكون لنا أن نَتكلَّم بهذا سُبْحانَك هذا بُهْتانٌ عظيمٌ * يَعِظُكم الله أن تَعودُوا لمِثْلِهِ أبدًا إنْ كُنتُم مؤمنين * ويُبَيِّنُ الله

لكم الآيات والله عليمٌ حكيم * إنَّ الذين يحبُّون أن تشيعَ الفاحشةُ فى الذين آمنَوا لهم عذابٌ أليمٌ فى الدنيا والآخرة، والله يعلمُ وأنتم لا تعلمون * ولولا فضلُ الله عليكم ورحمتُه وأنَّ الله رءوفٌ رحيم * يٰأيها الذين آمنوا لا تتَّبعوا خُطُواتِ الشَّيطان، ومَنْ يتَّبعْ خُطواتِ الشَّيطانِ فإنه يأمرُ بالفَحْشاء والمنكر؛ ولولا فضلُ الله عليكم ورحمتُه ما زَكَا منكم مِنْ أحد أبدًا ولكن الله يُزكِّى مَن يشاء والله سميعٌ عليمٌ * ولا يَأْتل أُولُو الفضل منكم والسَّعةِ أن يُؤتوا أُولى القُرْبَى والمساكينَ والمهاجرين فى سبيل الله وَلْيَعْفُوا وَلْيصفَحوا ألا تُحبُّون أن يَغْفِرَ الله لكم والله غفورٌ رحيم﴾[1].

قداسة الأعراض

ولما كانت الأعراض أعظم شىء ينبغى أن يصان، وكان حديثها أشهى حديث إلى نفوس الفُسَّاق والمستهترين، وكان الخوض فيها يعرض سمعة المجتمع وكرامات الناس للضياع.. عادت الآيات إلى التحذير الشديد من الرجم فى الأعراض بالغيب، ولعنت الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات فى الدنيا والآخرة، وتوعدتهم بالعذاب العظيم يوم القيامة:

---

(١) سورة النور الآيات ١١ - ٢٢.

﴿إن الَّذين يَرْمُون المُحْصَناتِ الغافلاتِ المؤمناتِ لُعِنُوا فى الدُّنيا والآخرةِ ولهم عذابٌ عظيمٌ * يومَ تَشْهدُ عليهم ألْسِنَتُهم وأيْديهم وأرجلُهم بما كانوا يعْمَلون * يَوْمئذٍ يُوَفِّيهم الله دِينَهم الحقَّ ويعلمون أنَّ الله هو الحقُّ المُبِين﴾[1].

كل يعمل على شاكلته

ثم خُتِم الموضوع كله بهذا القاعدة الاجتماعية العامة، التى تهدم التهمة من أساسها، والتى تصلح ميزانًا للحكم على كل فرد وعلى كل جماعة فى كل زمان ومكان:

﴿الخبيثاتُ للخَبِيثِين والخبيثُونَ للخبيثاتِ، والطيِّباتُ للطيِّبين والطيبُون للطيباتِ أولئك مُبَرَّءون مما يقولون لهم مَغْفِرةٌ ورزقٌ كريم﴾[2]..

وهكذا كلٌّ يعملُ على شاكِلَتِه، وكلُّ إناء بما فيه يَنْضَح؛ فللخبائث أهل الخبائث، وللطيبات أهل الطيبات؛ ولا ينضح الطيِّبُ إلا طيبًا، ولا ينضح الخبيث إلا خبيثًا؛ و «الناس معادن، خيارهم فى الجاهلية خِيارُهم فى الإسلام إذا فَقُهُوا».

ليس للمؤمن إذن أن يصدق أو يكذب ما يسمعه عن أخيه

---

(١) سورة النور الآيات ٢٣ - ٢٥.

(٢) سورة النور الآية ٢٦.

المؤمن، إلا بعد أن يدرس الظروف والملابسات، ويلاحظ الأسباب والنتائج، ويتعرف طبيعة الشخص ومعدنه، والبيئة التى نشأ فيها، والأصل الذى تفرعَ منه، والدوافع التى أحاطت به فدفعته إلى فعل ما فعل أو ترك ما ترك.. أما أن ينساق مع الإشاعات وينقاد للأراجيف فليس هذا من الحكمة ولا من الإنصاف. وهذا ما أخذه الله سبحانه على بعض المؤمنين فى حادث الإفك، وما حذرهم أن يعودوا إليه فى قوله سبحانه: ﴿يَعِظُكم الله أن تعودُوا لمثله أبدًا إنْ كُنتُم مؤْمنين * ويبيِّنُ الله لكم الآياتِ والله عليمٌ حكيم﴾.

شدد القرآن فى أمر هذه الفرية

هذه حادثة الإفك كما صورها القرآن الكريم، وفى ظروفها شرع الله ما شرع من الحدود، لحماية المجتمع الإسلامى من جريمة الزنى، ومن جريمة القذف فى أعراض المؤمنات، وشدد ما شدد فى إثبات هذه الجريمة المنكرة، حتى لا يؤخذ البرءاء فيها بفرية مفتر أو إرجاف مُرْجِف، وحتى لا تكون أعراض الناس هدفًا لكل رام، وعرضة لكل أفاك أثيم.

وقد يقول قائل: وهل من الممكن أن يأتى المرء بسأربعة شهداء لإثبات حالة الزنى على كل رجل وامرأة؟ وهل من

الممكن أن يتأتى ذلك فى كل حالة؟ وهل من المعقول ألا تثبت الجريمة إلا برؤية الشهود الأربعة، وإجماعهم على وقوعها وشهودها بأعينهم؟ أليس ذلك تكليفًا بما هو فى حكم المستحيل، وتعجيزًا عن إثبات هذه الجريمة الشنعاء فى حال من الأحوال؟.. بلى، قد يكون ذلك متعذرًا وقد يكون مستحيلا؛ ولكن المشرع لاحظ فى هذه الناحية أمورًا لها خطرها واعتبارها.. لاحظ أن هذا أمر يتصل بأعراض الناس وكرامتهم، وأن ناحية العرض ناحية حساسة، شديدة التأثر بكل ما يمسها من كلام الناس إن صدقًا وإن كذبًا؛ ولاحظ أن فى طبيعة الناس سرعة التصديق لهذه الإشاعات وسرعة العمل على إذاعتها، وأنها أشهى الأحاديث إلى نفوسهم، وأكثرها جريانًا فى مجالسهم؛ ولاحظ أنها تتصل اتصالا وثيقًا بسمعة المجتمع الإسلامى، وهو المجتمع الذى ينبغى أن يكون مثالا فى طهره ونظافته وسمعته الطيبة.

من أجل ذلك وضع المشرع هذه الحواجز القوية، وأقام هذه الحصون التى يتعذر اقتحامها، ليصون بها أعراض المؤمنين والمؤمنات، ويقطع بها ألسنة السفهاء والمفترين، ويحفظ بها للمجتمع الإسلامى سمعته وكرامته؛ وليضع بها للمسلمين دستورًا قويًّا يدعوهم إلى التروِّى والاحتياط عند سماع هذه الأخبار، وإلى التبيُّن والتثبُّت من كل ما يقال فيها، ويحول بينهم وبين ما جرى

عليه سائر الناس من تصديق الإشاعات وترويج الأكاذيب بغير علم: ﴿يا أيها الذين آمنُوا إن جاءكم فاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أنْ تُصيبوا قومًا بجهَالةٍ فتُصبحوا على ما فَعَلتم نادِمين﴾[1].

(١) سورة الحجرات الآية ٦.

obeikandl.com